القدم النوعي عند ابن تيمية وابن رشد

قبل الحديث عن القدم النوعي عند ابن تيمية وابن رشد لا بد من الإشارة إلى مفهوم النوع كمفهوم منطقي فلسفي حيث يعتبر النوع أحد الكليات الخمسة التي قال بها أرسطو(المحمولات) وذلك حتى يُفهم الموضوع في سياقه الصحيح بحيث نُدرك الفرق بين النوع كمفهوم كلي وبين العين التي هي تجلي تصديقي لذلك التصور والمفهوم الكلي المسمى نوع(أي تعيين له بحيث لا يبقى مفهوما مجردا بلا تصديق) وكذلك وجب الإشارة إلى العلل الأرسطية الأربعة لما لها من دور في فهم فكرة التسلسل وأيضا لما لها من دور توضيحي لبعض الأفكار التي تتقاطع مع فكرة التسلسل ووجود حوادث لا أول لها ولما لها من دور أيضا في التمييز بين التعيين والأعيان وبين التصور كمدخل في فهم فكرة النوع وكذلك في فهم التطور الجدلي في مسيرة التسلسل اللا منتهية ولذا سنقوم بشرح الكليات الخمسة بإيجاز.

في المنطق الصوري عند المناطقة (سمي منطقا صوريا لأنه يعتمد على صورة القياس والاستدلال لا مادته فهو أمر تصوري مفهومي عقلي) يطلق على الحقائق المجردة التي تُعرف عن طريق العقل لا الحواس اسم الكليات فالكليات أمور اعتبارية عقلية محضة ولذا يقال عندهم (الكلي في العقل) أي الكلي ليس له وجود خارجي فهو شأن عقلي محض .

وهذه الكليات تندرج في خمس تصنيفات وهي:

1- الجنس Genus
وهو أعم من النوع وهو مفهوم مشترك يصدق على كثيرين مختلفين في الحقائق مثل جنس الحيوان أفراده "الإنسان – الأسد – الثور " إلخ حيث نلاحظ أنواع أفراده مختلفة ولكن المشترك بينهم هو الجنس "الحيوان " .

2- النوع Species
وهو مفهوم يصدق على كثيرين متفقين في الحقائق وهو يمثل تمام حقيقتهم وليس الحقيقة المشتركة مثل الإنسان كنوع "أو كصنف"فالإنسان كمفهوم يصادق الكثيرين ذوي الحقيقة الواحدة مثل وليد وسعيد ورشيد ومجيد .... إلخ فهؤلاء قد يتمايزون كأفراد من حيث الطول ولون البشرة والشكل ولكن تبقى حقيقتهم واحدة فهم بشر وهي تمام حقيقتهم الجامعة لهم وليس مشترك بين كثيرين مختلفين . وقد يكون لدينا كمثال آخرصنف من الأثاث يُدعى أريكة "كنب" فالأريكة كنوع أو كصنف تصدق على حقيقة واحدة وهي الأريكة ولكن هذه الأريكة قد تأخذ أشكالا عدة وأطرزة عدة يوحدها كلها مفهوم كلي عقلي اسمه النوع فهي جميعا تصنف كأريكة في الذهن وأن اختلفت أفرادها في الواقع باختلاف أطرزتها ومقاساتها وألوانها .

3- الفصلDifference
هو مفهوم يصدق على كثيرين متفقين بالحقيقة وهو يمثل جزء من هذه الحقيقة وليس تمامها مثل حالة الناطق بالنسبة للإنسان فهي جزء من حقيقته ولكنها تفصله وتميزه عن غيره فليس غير الإنسان ناطقا ولكن النطق هو جزء من حقيقة الإنسان كحقيقة تامة تميزه عن غيره وتفصله .

4- الخاص "العرض الخاص" Property

وهو مفهوم يصدق على كثيرين متفقين بالحقيقة ولكنه لا يمثل حقيقتهم ولا جزء منها مثل حالة "الضاحك " بالنسبة للإنسان إذا ليس هنالك ضاحكا غير الإنسان ولكن الضحك لا يمثل ماهية الإنسان وحقيقته وليس جزء منها فهو أمر عارض وصفة عارضة ولكنها خاصة بالإنسان وحده .

5- العرض العامAccident

وهو مفهوم يصدق على كثيرين مختلفين بالحقيقة ولا يمثل حقيقتهم ولا جزء منها مثل حالة "الماشي" تصدق على مختلفين بالحقائق مثل الإنسان والحصان والجمل ولكن المشي أمر عارضوليس هو حقيقتهم ولا جزء منها ولا يمثل ماهيتهم .

وبهكذا نكون وضحنا مفهوم النوع كمفهوم منطقي وهو أحد الكليات الخمسة والتي تُعد بدورها أمرا اعتباريا ذهنيا وهي من أهم مباحث المنطق الصوري(الذي يستند على صورة القياس أو الاستدلال لا مادته) والتي يسميها أرسطو بالمحمولات Predicable لأنها عبارة عن حصر العلاقة بين الموضوع والمحمول ولننتقل بعدها إلى شرح العلل الأربعة .

أما العلل الأربعة عند أرسطو فهم :

1- العلة الصورية (ما يوجد الشيء بالفعل)
2- العلة المادية (ما يوجد الشيء بالقوة)
3- العلة الفاعلة(ما يوجد الشيء بسببه)
4- والعلة الغائية (ما يوجد الشيء لأجله)

ولشرح الفكرة سنسوق المثال التالي :
أراد أحد المهندسين عمل مجسم (ماكيت) لمبنى من تصميمه فتكون عندها صورة المبنى وشكله وهيئته الكامنة في ذهن المهندس والتي كان قد وضع التصميم وفقا لها هي (العلة الصورية)وتكون المادة التي صنع منها المجسم سواء أكانت مادة الفوم أو خشب البلص هي (العلة المادية) بينما يكون المهندس هو (العلة الفاعلة) ويكون الغرض من إنشاء ذلك المجسم فلنقل بغرض الإيضاح والتبيان للتصميم هو (العلة الغائية) .

وبهذا نكون قد وضحنا الكليات الخمسة والعلل الأربعة والتي ستعيننا في فهم بعض الأفكار الفلسفية حول طبيعة العلاقة بين الله والكون كما سنرى بعد قليل .

الرؤية الهرمسية للعالم

يرى هرمس أن العالم ما هو إلا أفكار وصور كانت في ذهن صانع العالم والذي هو "عقل كله" فهو عقل الكون وأفكاره الكامنة قبل التجلي والظهور حيث تعد الأفكار هي صورة العالم الموجبة الموجود في ذلك العقل "الله" ومنها استمد العالم المادي وجوده فهو متلقي سلبي (علاقة تفاعلية بين سالب وموجب)وهذا العالم وإن كان متلقي سلبي لتلك الأفكار الموجبة فإن الله أو ذلك العقل المتمثل بتلك الأفكار يحتاج ذلك العالم المادي المتلقي السلبي لتحقيق ذاته فهو بدون تجلي هذا العالم لن يُعرف ويتم تمييزه وهذا الجدلية بين الصورة والمادة والله والطبيعة تستمر في نسق تطوري إلى ما لا نهاية "تسلسل"وبهذا قال هيجل كمفكر هرمسي (كل ما هو معقول فهو واقعي وكل ما هو واقعي هو معقول) ويرى سبينوزا أن الله هو قانون الطبيعة (عقل الطبيعة الناظم) والطبيعة تمظهرات له وتعيينات له وهو بذلك كما هرمس وهيجل يُقر بفكرة وحدة الوجود pantheism .
ولعلنا نجد أفكار هرمس ولكن بصورة وحدة وجود مادية عند هرقليطس الذي قال بأن النار اللطيفة أصل الوجود وهي النظام العام الذي ينظم الأشياء أي " اللوغوس/ اللغة" فالعالم ما هو إلا تمظهرات تتجلى من خلالها تلك النار اللطيفة ليعود كل شيء مجددا إليها بما يُعرف بفلسفة الدور وليعود العالم ويتعيين ويتجلى مجددا من تلك النار اللطيفه ليدخل بدور آخر وهكذا يستمر الموضوع إلى ما لا نهاية وبشكل متسلسل بما يشبه فكرة إعادة التجسد والتعيين عند الهندوس والبوذية وجماعة ثيوصوفي .

الرؤية الآريوسية في تصور العلاقة بين الله والكون :

قبلت المسيحية تحت تأثير روماني وثني فكرة وحدة الوجود وإن كان ذلك بصورة جزئية فاللوغوس (اللغة) هو كلمة الله وأن المسيح بما أنه هو كلمة الله فهو اللوغوس والنظام العام للأشياء ومبدأ الكون الذي خُلق بواسطته (في البدء كانت الكلمة) وقالوا بوجود طبيعتين للمسيح أحدهما لاهوتي مجرد وهو أحد الجواهر العلوية الثلاثة عند هرمس (الوجود- العلم/الحكمة – الحياة) وكذلك ما يقابل أحد الجواهر العلوية عند أفلوطين (الواحد – العقل الكلي- النفس الكلية) فقالت النصارى بأن الله هو الآب وهو يماثل الوجود عند هرمس والواحد عند أفلوطين وأن المسيح هو الابن وهو الكلمة باعتبار أن الكلمة هي بُناة أفكار الآب والفيض المتولد منهوعقله المطلق المتولد فهي العقل الكلي الذي صدر عن الواحد كما عند أفلوطين وهي الحكمة والعلم كما عند هرمس أما الروح القدس فهي تقابل النفس الكلية عند أفلوطين التي تنبعث الحياة والأشياء والأفكار منها وهي ما تقابل الحياة عند هرمس ولكن المسيحية رفضت أن يكون المسيح قد حل بالكون كله وفضلت بأن يكون قد حل بالجسد الناسوتي للسيد المسيح باعتبار أن جسد الإنسان كون أصغر في نظر فلسفات وحدة الوجود الغنوصية(وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر) فالعقل الكوني كان قد حل في الكون الأصغر وتجسد به وما المسيح الناسوت إلا لفظ ودليل لهذا المدلول المتجاوز والذي هو المسيح اللاهوتي أو الكلمة (اللوغوس) وهكذا نجد أن النصارى حددوا فكرة التعيين والتجلي في محل واحد وهو المسيح الجسد وضيقوا فكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد إلى أبعد مدى .

ولكن آريوس والمدرسة التابعية من قبله رفضوا تلك الرؤية النصرانية المثلثة وقالوا بأن المسيح اللاهوتي ليس مساوي لله في طبيعته (أي ليس من الجواهر العلوية الثلاث)بل هو مخلوق له وتابع (ولهذا سميت بالمدرسة التابعية)ولكنه في الوقت نفسه لا يخضع للزمان والمكان لأن المسيح اللاهوتي أو الكلمة هو الواسطة التي خلق بها الكون(كأنه إله صغرى أو صفة فعل) وبالتالي خلق المكان والزمان (بما يُشبه كلمة "كن" عند المسلمين والإرادة الحادثة في لا محل عند بعض المتكلمين والتكوين كصفة أزلية قائمة بالله عند بعضهم الآخرحيث أنها غير مساوية له كطبيعة فليست هي هو ولا غيره وإن كان منها ينبثق الوجود وذلك حتى لا يقعوا بفكرة الحلول وقيام الحوادث بالذات الإلهية ولكن مع الفارق فقول آريوس في إطار مسيحي وقول المسلمين ومتكلميهم في إطار إسلامي).

وبالعودة إلى ما قاله كل من ابن تيمية وابن رشد سنجد أن فكرة القدم النوعي هي حصيلة فكرة فلسفية ترى أن الله كان ومازال فاعلا منذ الأزل وأن كمال الله يستوجب أن يكون فاعلا باستمرار فدوام الفعل من الكمال فإحجام الله عن الفعل مع كونه قادرا عليه لهو نقص ولكن ما يميز قولهم عن الفلاسفة الله لا يفعل الفعل باضطرار بل باختيار وبناء على فإن تسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية لهو مرتبط بكماله تعالى وإن أفعاله هي من لوازم حياته فإن كل حي فعال والفرق بين الحي والميت هو الفعل ولم يأت وقت من الأوقات كان الله معطلاً به عن كماله بوصفه فاعلا . فنحن ها هنا نقترب من فكرة هرمس بوجه من الوجوه حول حاجة الله للفعل المستمر وترجمة الأفكار من خلال التجلي وتعيين الأعيان وذلك لتحقيق ذاته فإله من غير وجود مخلوقات تتعرف إليه لا معنى له فوجود المخلوقات هو إثبات لذاته كإله وما المخلوقات إلا ترجمة واقعية للأفكار الكامنة في ذهن الله ويُعرف الله من خلال هذه الترجمة لتلك الأفكار على أرض الواقع فلو كان الله موجودا ولا بشر ولا حجر ولا شجر ولا بقر فمن الذي سيعرف الله حينها! سيبقى الله مبهما وغير معروفا ما دام هؤلاء جميعا معدومات . من هنا كان لا بد من تلك العلاقة التفاعلية بين الصورة في ذهن الله والمادة في الواقع والتي ستكتسي بتلك الصورة فتأخذ هيئتها . وهكذا يستمر التفاعل في جدلية لا نهائية وما العالم إلا تطبيق لأفكار الله اللا متناهية .

وبالعودة للقدم النوعي للعالم نجد أن النوع كمفهوم كلي مجرد عن الواقع والزمان والمكان هو قديم وثابث لأنه مفهوم كلي مجرد يقبل ما صادقات كثيرة "الأفراد والمخلوقات " والكلي بالعقل كما هو معروف عند الفلاسفة والمناطقة ففكرة النعيم الأبدي في الجنة على سبيل المثال هي حاصلة بالشرع وأن الأبدية في النعيم من جهة النوع لا من جهة الأحداث التي يتحقق عندها التنعيم والتي هي في حالة تبدل وتغير وخلق مستمر وتسلسل وإن كان النعيم مقيم لا يزول فهو من جهة نوعه كمفهوم ذهني باقي ومستمر لا يزول كونه فكرة اعتبارية في الذهن مجردة من المصاديق خارجة عن نطاق التبدل والتغيروالصيرورة فبالتالي هو قديم .

وهكذا نجد أن العالم كجوهر متحيز بذاته وموجود لا في موضوع ومفهوم ذهني مجرد هو قديم ولكن المتغير هو مكوناته التي تكون بمجموعها هذا الجوهر وكأن ابن رشد وابن تيمية يشيران وإن كانا بشكل غير مباشر إلى أن العلل الصورية كأفكار لله والتي تحمل أنواعا وأصنافا عدة غير مترجمة إلى مصاديق تطابقها في أرض الواقع حيث علتها المادية (أي الواقع هو علتها المادية) لهي علل صورية قديمة قدم الله من جهة كونها أمرا اعتباريا ومفهوما كليا فهي لا بد أن تكون خارج نطاق الزمان والمكان ومجردة عنه ولكن مادتها حادثة باستمرار أي علتها المادية حادثة

بينما الله هو علتها الفاعلة ولكن لو أننا أمعنا النظر في ذلك القول سنجد أن المادة قديمة كنوع أيضا وحادثة كأفراد فالمادة كمفهوم مجرد هي قديمة وأزلية ولا يوجد مفهوم المادة إلا مجردا لأنها في الخارج تتمظهر بتعيينات وأفراد فتُعرف المادة خلال الخشب والجلد والزجاج والماء و الحديد ... إلخ .

وهكذا نجد أن مفهوم النوع هو مفهوم مجرد لا على التعيين وإن تمظهر وتعيّن وأصبح شاخصا سمي عينا لأنه تحديد لهذا المفهوم وتصديق وإثبات له . والقدم النوعي هو أمر اعتباري عقلي ولهذا ذهب بعض العلماء والمتكلمين إلى تأويل مقاصد أقوال بعض فلاسفة الإسلام كابن رشد بأنه يقصد العالم قديم في علم الله بصورته ونوعه وذلك بغية تبرئة ابن رشد من القول بالحلول والاتحاد والشرك وفقا لمنظورهم .

والله أعلم .